المحاضرة الأولى:

الإطار المفاهيمي لنظرية العلاقات الدولية

عرف حقل العلاقات الدولية، منذ نشأته الأكاديمية في مطلع القرن العشرين، مسارا علميا متدرجا في التنظير، انتقل من مقاربات واقعية وليبرالية كلاسيكية تركز على الدولة والقوة والمصلحة، إلى موجات متعاقبة من "المناظرات الكبرى" التي أعادت باستمرار طرح السؤال حول: **ما الذي يجعل من دراسة العلاقات الدولية دراسة "علمية"؟**

أفرز هذا التطور، انقساما إبستمولوجيا واضحا بين مقاربات **وضعية/عقلانية** تسعى إلى تفسير السلوك الدولي عبر مناهج أقرب إلى النموذج العلمي الطبيعي، ومقاربات **ما بعد وضعية/تأملية** تركز على اللغة والهوية والسلطة والمعاني، وتنتقد أسس إنتاج المعرفة ذاتها في هذا الحقل.

إن حالة الازدحام النظري/ التضارب، التي يعيشها حقل العلاقات الدولية، جعلت فهمه يتطلب العودة إلى أسسه المفاهيمية قبل الغوص في تفاصيل مقارباته النظرية المتعددة، ذلك أن "نظرية العلاقات الدولية" لم تعد مجرد أداة لتفسير سلوك الدول أو تحليل موازين القوى، بل أصبحت إطارا إبستمولوجيا ومنهجيا يعكس افتراضات محددة حول **طبيعة الفاعلين، وطبيعة النظام الدولي**.

تنطلق هذه المحاضرة من **إشكالية مركزية** هي:

كيف يمكن بناء إطار مفاهيمي واضح وجلي لنظرية العلاقات الدولية، يوضح تطور التنظير في الحقل، ويبين المنطق الكامن وراء التصنيف المعاصر للنظريات بين الوضعية/العقلانية وما بعد الوضعية/التأملية؟

ومن أجل تفكيك هذه الإشكالية، تتوزع المحاضرة على ثلاثة مستويات مترابطة شكلت في مجملها محاورها، وهي كالآتي:

1. ضبط مفهوم "نظرية العلاقات الدولية" وحدوده ووظائفه في تحليل الظاهرة الدولية.
2. تتبع تطور التنظير في العلاقات الدولية عبر مقاربة زمنية متباينة.
3. فهم التصنيف المعاصر للنظريات بين الوضعية/العقلانية، وما بعد الوضعية/التأملية.

بهذا التصور، لا تهدف المحاضرة إلى تقديم سرد تاريخي للنظريات فحسب، بل تسعى إلى منح الطلبة خريطة مفاهيمية تساعدهم على ترتيب هذا "الازدحام النظري" في العلاقات الدولية، وفهم الخلفيات العميقة التي تقف وراء تعدد وتعارض المقاربات النظرية في دراسة السياسة العالمية.

أولا: مفهوم نظرية العلاقات الدولية:

1-النظرية Theory:

-التعريف: النظرية تجيب عن سؤال: لماذا يحدث، ماذا يحدث؟ وليست مجرد وصف لما يحدث:

-مجموعة من الأفكار بدلا من فكرة واحدة؛

-طريقة لترتيب الحقائق وتحويلها إلى معلومات وبيانات وانتقاء المعلومة المفيدة من بين المعلومات المتاحة والاستفادة منها في عمليات الوصف والتحليل والتفسير والتنبؤ؛

- منظومة مترابطة من المفاهيم والافتراضات والتعميمات تهدف إلى تفسير ظاهرة معينة وفهم علاقات السببية أو الترابط داخلها.

غالبا ما يستخدم مصطلحا **"النظرية"** و**"النموذج"** بالتبادل في حقل السياسية، ومع ذلك يمكن التمييز بينهما بكون النظرية؛ اقتراح/ مقولة يقدم تفسيرا منهجيا لظاهرة أو لمجموعة من الظواهر، في المقابل، النموذج؛ هو مجرد جهاز توضيحي، يستخدم لمساعدة النظرية على أداء وظائفها، بهذا المعنى، يمكن القول، إن **النظريات** قد تكون أكثر أو أقل دقة (في التفسير)، **والنماذج** يمكن أن توصف بأنها أكثر أو أقل فائدة (في مساعدة النظرية على أداء وظائفها).

-الوظائف:

تتعلق النظريات بشكل أساسي بالقدرة على: تفسير الظواهر، حيث يعتبر **التفسير**: الوظيفة الأهم للتنظير، يتضمن الإجابة عن التساؤلين (مادا، وكيف)، تعدد التفسيرات (النظريات المستخدمة في التفسير) هو أحد مظاهر الارتباك التي تحيط حقل السياسة، فعنما يحاول الباحث المفاضلة بين التفسيرات المختلفة، فإنه يجد وفرة في النظريات التي تتنافس بأكثر مما تتكامل تفسير الظواهر محل البحث، وبخلاف التفسير يفترض أن تنهض النظرية بمهام:

-الوصف: وظيفة مهمة للتنظير، يقدم إجابة عن سؤال: (ما/ماذا)؛

-التنبؤ: استنتاج ما يمكن أن يحدث في ضوء الفرضيات.

2-العلاقات الدولية International Relations:

-مجمل التفاعلات التي تتجاوز الحدود القومية بين وحدات سياسية (الدول)، في إطار نظام دولي معين.

-يتحيز حقل العلاقات الدولية للتاريخ الأوروبي والميراث الغربي، وهو ما توافق على تسميته بالمركزية الأوربية Eurocentrism، فتاريخ العلاقات الدولية بشكل عام هو تاريخ أوروبا، وواقعها يدور حول الغرب بالأساس، كما أن القضايا محل الاهتمام عكست بدرجة مطلقة اهتمامات الدول الغربية وعلى رأسها

الولايات المتحدة الأمريكية منذ الح ع 2، ويظهر هذا بوضـــوح في مرحلة الحرب الباردة والاهتمام الأكبر الموكل للقضايا الأمنية والعسكرية والجيوسياسية.

هذا التحيز أيضا، يكشـف عن الأطر النظرية والمنظورات الأساسـية المفسـرة للعلاقات الدولية، حيث ارتبط صعود هذه المنظورات وهبوطها بطبيعة علاقات القوى في النظام الدولي واهتمامات الدول الكبرى.

ما يهمنا أن العلاقات الدولية كحقل علمي هو فرع من العلوم السياسية يدرس الظاهرة الدولية بمناهج نظرية ومنهجية متعددة، ويتضـمن تقاليد فكرية متباينة في: طبيعة الفاعل (الدولة/ما بعد الدولة)، وحدة التحليل، وطبيعة النظام الدولي، دور الأفكار والقيم...

بعد تفكيك مفهوم نظرية العلاقات الدولية، توصـــلنا إلى أن: "نظرية العلاقات الدولية هي بناء فكري منظم يسـعى إلى تفسـير أو تأويل أنماط السـلوك والتفاعل في النظام الدولي، من خلال افتراضـات محددة حول طبيعة الفاعلين (الدول وغيرها)، وبنية النظام الدولي، وطبيعة المصالح والقيم والقوة.

ثانيا: تطور التنظير في العلاقات الدولية:

مر تطور التنظير في العلاقات الدولية عبر محطات متعاقبة، يمكن فهمها كتحول تدريجي في الأســئلة والأطر المعرفية، حيث كانت بدايتها في انشـغال الحقل بسـؤال الحرب والسـلام ومحاولة تفسـير سـلوك الدولة في بيئة دولية مضطربة (الواقعية والليبرالية الكلاسيكيتان)، ولاحقا، ومع صعود المناهج السلوكية والعقلانية، تحول التركيز نحو بناء نظريات "علمية "تسـعى إلى تفسـير سـلوك فاعلين عقلانيين في ظل بنية دولية معينة، وهو ما تجسد في الواقعية البنيوية/الجديدة والليبيرالية الجديدة (المؤسساتية).

غير أن هذا المســار الوضــعي لم يبق بلا منازع؛ إذ جاء المســار ما بعد الوضــعي عبر المقاربات البنائية والنقدية لتطرح أسـئلة جديدة حول الهويات والمعايير والمعاني، وتدخل إلى الحقل انشـغالا بتكون المصالح والفاعلين أنفسهم، بدل الاكتفاء بتفسير سلوكهم.

ومع مطلع القرن الحادي والعشـرين، أصبح المشـهد النظري متعددا ومزدحما، حيث تتعايش النظريات الوضـعية/العقلانية مع ما بعد الوضـعية/التأملية داخل حقل واحد، يتجادل فيه الباحثون حول طبيعة الواقع الدولي، وحدود العلم، ووظيفة النظرية بين التفسير والنقد والتحرر.

هذه المحطات تمهد لتقديم الجدول الزمني بوصــفه خريطة مركزة لهذا الانتقال من ســؤال "لماذا تتصرف الدول كما تتصرف؟"، إلى سؤال "كيف صيغت الطريقة التي نفهم بها العالم الدولي أصلا؟".

الموجة	الفترة	الاتجاهات الأساسية	السؤال الرئيسي
الموجة الأولى: الواقعية–الليبرالية الكلاسيكية	من عشرينيات إلى ستينيات القرن 20	المثالية الليبرالية الأولى، الواقعية الكلاسيكية	كيف نفسر الحرب والسلام بين الدول؟ وهل يمكن للمؤسسات والقانون أن يحدا من الصراع؟
الموجة الثانية: العقلانية الوضعية	سبعينيات–ثمانينيات القرن 20	الواقعية البنيوية (الواقعية الجديدة)، الليبيرالية الجديدة (المؤسساتية)	كيف تؤثر بنية النظام الدولي وتوزيع القوة والمؤسسات في سلوك الدول العقلانية؟
الموجة الثالثة: المقاربات البنائية والنقدية	أواخر الثمانينيات–التسعينيات	البنائية، النظرية النقدية، بدايات ما بعد البنيوية والنسوية	كيف تنتج الهويات والمصالح والمعاني في النظام الدولي، بدل افتراضها معطاة سلفا؟
الموجة الرابعة: التعددية وما بعد الوضعية	من مطلع القرن 21 إلى اليوم	استمرار النظريات الوضعية، مع توسع المقاربات التأملية (نسوية، ما بعد استعمار، أمن نقدي...)	كيف نتعامل مع تعددية العدسات النظرية في فهم قضايا العولمة، الأمن، واللا مساواة في النظام الدولي؟

ثالثا: تصنيف نظريات العلاقات الدولية: الوضعية/العقلانية مقابل ما بعد الوضعية/التأملية:

إن الانتقال من **النظريات الوضعية/العقلانية**، إلى **النظريات ما بعد الوضعية/التأملية**، هو انتقال من تصور للنظرية كـ"خريطة تشرح العالم" إلى تصور لها كـ"مرآة تكشف كيف ولماذا رسمت هذه الخريطة بهذه الطريقة بالذات."

ننطلق هنا من سؤال جوهري:

ما الفرق بين "النظرية" كنموذج تفسيري، و"النظرية" كإطار نقدي وتأملي في شروط إنتاج المعرفة؟

الإجابة عنه، تحيلنا إلى معيار التصنيف المعاصر للنظرية في العلاقات الدولية.

حيث يكمن الفرق في أن:

- **"النموذج التفسيري"**، يسأل: **لماذا يحدث ما يحدث في العالم؟**، بينما **"الإطار النقدي/التأملي"**، يسأل :**كيف صيغت الطريقة التي نفهم بها العالم أصلا؟ ومن يستفيد من هذه الصياغة؟**

1-النظريات الوضعية/العقلانية : النظرية كنموذج تفسيري : Positivist theories

تكون النظرية أداة لتفسير السلوك الدولي والتنبؤ به، بافتراض وجود واقع خارجي مستقل عن الباحث يمكن اكتشافه بقواعد منهجية صارمة نسبيًا.

تركز هذه النظريات عادة على المتغيرات القابلة للضبط (مثل توزيع القوة، مصالح الدول، بنية النظام الدولي) وتبحث عن انتظامات سببية أو شبه سببية يمكن تعميمها، مثل: الواقعية والليبرالية والنظريات العقلانية عموما.

هذه النظرة تتبنى منطقا أقرب إلى **الوضعية:** هناك حقيقة عن العالم، مهمة النظرية كشفها، ومهمة الباحث تقليل تحيزاته الشخصية قدر الإمكان ليستطيع وصف الواقع والتنبؤ به.

2-النظرية ما بعد الوضعية/التأملية: النظرية كإطار نقدي وتأملي: Post-positivist theories

لا تفهم النظرية أساسا كأداة لتفسير "واقع معطى"، بل كإطار لفحص كيفية بناء هذا الواقع في الخطاب والمعرفة والممارسة.

تنطلق هذه المقاربة من أن ما نعده "حقائق" عن العلاقات الدولية مشحون دائما بقيم وافتراضات وقوة، وأن مفاهيم: "النظام الدولي" و"الأمن "و"الفوضى" ليست أوصافا بريئة بل اختيارات لها آثار سياسية.

هنا تتحول أسئلة النظرية من: "ما أسباب الحرب؟" إلى أسئلة: "كيف يعرف العنف؟ من يملك سلطة تعريف التهديد؟ كيف تقصى تجارب وهويات معينة من سردية النظام الدولي؟" كما في النظرية النقدية، وما بعد البنيوية، والنسوية، وبعض اتجاهات البنائية.